القصص

قصـــة مصرية

صـــدمة الغرور

أتم كامل تسريح شعره بعد أن نضحه بماء الكولونيا ووضع طربوشه فوق رأسه . ثم نظر فى المرآة المثبتة فى خزانة ملابسه نظرة اختبار وتأمل ، فحسن فى عينه كل شىء إلا نظام المنديل الحريرى المدلى من جيب سترته ، فأخذه فى يده وجمع أطرافه إلى وسطه وأعاده بعناية ورفق إلى مكانه

ارتدى بعد ذلك معطفه ، وأمسك بعصا دقيقة وخرج من المنزل الصغير ، بعد ان أوصى الخادم أن يعد طعام الغداء مع شىء من الزيادة وكثير من العناية ، لأن ضيفا سيأتى لزيارته اليوم وسيعود إلى المنزل معه .

سار كامل فى طريقه الى عمله بمكتب « التلغراف » فى تؤدة ونظام ، ترتسم على شفتيه نصف ابتسامة يتكلفها دائما ليكون عظيما على الاقل فى نظر نفسه . وكان حريصا كعادته على ان يقتصد فى نظراته وتحياته فى الطريق ، وعلى ان يظل منتصب القامة واضعا يده اليسرى فى جيب معطفه ، ومسكا بالاخرى قفازيه وعصاه الثمينة ، يرفعها ويهبط بها على نظام ثابت ، وبين مسافات متساوية . مبتعدا بحذائه اللامع عن آثار المطر القليل فى الشارع .

وصل المكتب فحيا الوكيل وحيا زملاءه بابتسامة كاملة لم تنفرج لها شفتاه ، ثم جلس الى عمله يستقبل البرقيات ويعنونها ويضعها فى أغلفتها ويسلمها بايصالاتها إلى السعاة الموزعين

يفكر كامل فى نفسه كل التفكير ويتأنق فى ملبسه كل التأنق ، فهو يشفق ان تقتحمه نظرة ارستقراطية تقع منه على ضعف فى التجانس بين قميصه الحريرى وبين بذلته أو رباط عنقه . ولذلك يأخذ نفسه بكثير من الدقة فى اختيار الألوان وفى انسجام كل مجموعة من ملابسه على ذوق مناسب للفصل وللوقت . وعلى ذلك كله وان ن

يعمل فى مدينة صغيرة من مدن الوجه البحرى قلما تقع فيها العين على أكثر من اللباس العادى النظيف الذى يمتاز بالبعد عن الكلفة والامعان فى البساطة

ويحرص على هذا كله برغم ما يقتطع من مرتبه الشهرى الذى لم يزد على سبعة جنيهات ونصف جنيه من يوم أن عين فى وظيفته . وهو راض بذلك يعيش منـــه فى جو من الغرور وخيال العظمة يعزله عن وسطه وزملائه ويجعله أحيانا مبعث دهشتهم وأحيانا موضع نكاتهم .

قلبه يحمل إلى جانب ذلك حبا يملكه كأقوى ما يمتلك الحب ، وهوى يعذبه كأشد ما يعذب الهوى . فاذا به وهو ممسك بصورة محبوبته يقلبها بين يديه فى مناجاة ذليلة ، وضعف ينسى فيه نفسه ويتخيل الحبيبة كل شىء ، طالما أوصد على نفسه باب حجرة نومه الصغيرة . وأخرج الصورة من حرزها الحريز فى خزانته ولبث ينظر اليها فى ذهول حتى يغيب عن وجوده وعن حجرته ، ويعود فى ذكرياته الى أيام الدراسة ثم إلى أيام العمل الاولى فى القاهرة . فيرى نفسه وقد ذهب محملا بالأمانى غارقا فى الأحلام الى منزلها ليزور والدها واخوتها ، حاملا إليهم تحيات أسرته الصديقة كان ينتهز لذلك فرصا كثيرة . وكان يقابل هناك بكثير من الحفاوة للصلات القديمة المتينة التى تربط العائلتين . وكانت تأتى « هى » لتحيته فيقوم لها وقد سرت فى جسمه هزة سريعة ينهزم لها قلبه ، ويتعقد لسانه ، وتتسمر عيناه ، الا أن الابتسامة التى كانت تتطبع على شفتيه دون وعى كانت تحجب عن الأنظار كثيراً من ذلك . ثم يجلس مفكك الأوصال كما يعتدل فى فراشه المريض الناقه بعد أدوار الحمى القاسية . ويمضى الزمن سريعا سريعا فيستأذن ويخرج مهيض الجناح ملتاع القلب . يذكر ذلك وفى يده الصورة فينهال عليها بفمه الملتهب يقبلها فى حرارة ، ويرفع نظره عنها ويثبته فى السقف وهو لا يرى منه شيئا . ثم يرسل تنهدة عميقة ، ويقوم فى تراخ فيفتح صوانه ويضع الصورة حيث كانت . ثم يعود الى سريره يستلقى عليه فى فتور وإعياء .

هذه الصورة عزيزة عليه ، يحتفظ بها ويحرص عليها كل الحرص لانها لم تصل الى يده الا بعد عناء شديد ، شاركته فيه أمه عند ماسافرت لرؤيته فى مصر ، فاعملت حيلتها فى تبادل الصور بين الأسرتين ، ولم تظفر بها الا بعد جهد ورجاء فى الزيارة الثانية . وقد تشجعت - بعد الحاح ابنها الشديد - على أن تشير فى سرعة وغموض الى أملها فى أن تتصل بينهما أواصر صلة قريبة . وكم اطمأن قلبها عندما لمحت حمرة الخجل تشيع فى وجه (رسمية) وابتسامة المجاملة تبدو على ثغر والدتها !

كل هذه الذكريات كانت تطيف بكامل كل يوم قبل أن يأوى الى فراشه ، وعندما يخلو الى الصورة العزيزة يناجيها ويتنهد من أقصى رئتيه ، لايستطيع التفكير فى مصير أمله الغامض

لم يسافر الى مصر من عهد أن خف منها ، وقد أرسل خطابا الى عمه ، رأفت بك والدرسمية يعرفه فيه حاله ، ويتجه بتحيته الى الاسرة جميعها . ووردااليه منه رد رقيق يتمنى له فيه الراحة ويبدى استعداده لخدمته فيما يريد . وقد استحى بعد ذلك أن يكتب اليه مرة أخرى ، ثم هو لايعرف طريقا يقربه من غرضه . فوق أنه لا يعتمد على شيء لهذا الغرض الا على الصداقة القديمة بين أبيه وبين رأفت بك . وهو لايثق كل الثقة فى أنها تكفى بعد أن بعدت الشقة وأصبح رأفت بك موظفا كبيرا ، ونشأت رسمية على حياة راقية وآمال واسعة . كما أنه لايثق من مساعدة أبيه له لنفس هذه الاعتبارات ، ولذلك يؤثر الا يكاشفه بالأمر فى رغبة ورجاء استبقاء على أمله أن يتبدد من أقرب الناس اليه .

كانت تؤلمه هذه الخواطر حين ينتهى فى تفكيره اليها فيحاول أن يبعدها عنه فلا تبتعد ، ويعلق نفسه بخيوط من الامانى . لعله يوما أن يكتسب عطف رأفت بك ، ولعله يوما أن ينعم بحب رسمية . أليس شابا مستقيما ؟ أليس وسيما أنيقا ؟ وتحمله هذه التأملات من مكانه فاذا به امام المرآة ينظر الى نفسه ثم يتنسم لها ويعود الى فراشه . ويسلم أفكاره الى الهواجس ثم الى النوم حتى الصباح

* * *

حان موعد قيام القطار فدوى صفيره فى الفضاء ، ثم انطلقت أنفاسه المحبوسة ، وتحرك فى خفة وهدوء ، وارتفعت أصوات المودعين ، واخذ القطار يبتعد عن الرصيف شيئا فشيئا ، وأخذ المودعون والمسافرون يلوحون بمناديلهم فى الهواء . ثم أغلقت النوافذ ، وتتابعت المناظر من خلال الزجاج فى سرعة عظيمة .

وجلس الدكتور أمين ممسكا بيده المجلة العلمية التى ابتاعها وأخذ يقلب صفحاتها ليعرف موضوعاتها وكتابها . ثم وضعها الى جانبه وسبح فى خياله . هو اليوم يعود الى القاهرة منقولا إليها بعد أن فارقها من سنتين ، . فارق فيهما حريته الواسعة واصدقاء الدراسة ، واندمج فيهما فى التقاليد الاجتماعية التى ينفر منها ، ولكنه لايجد مفرا من الخضوع لها . سيعود اليها الآن شبه غريب فقد تفرق زملاؤه ، وأصبح هو مقيدا بعمله وواجباته . ولكن القاهرة هى القاهرة على كل حال ، ولا بد أن يجد فيها كل امرىء راحته وسعادته .

اتسعت احلامه وذكرياته فقام من مكانه ومديديه الى الأمام ثم الى الخلف فى بطء واسترخاء مالئا رئتيه من الهواء المنعش البارد كمن يود أن يستجمع نشاطه المتفرق . ثم سار فى بهو العربة الخالى ينظر أحيانا الى الركاب اللاهين فى أحاديثهم أو صحفهم ، أو المسلمين أنفسهم إلى سنة خفيفة من نوم أو تفكير . سار مرات فى ذهاب وجيئة لم يتعد العربة التى هو فيها ، ثم خطر له أن يجتاز مركبات الدرجة الأولى إلى عربة الأكل ليتناول فيها فنجانا من الشاى . فسار سيرا رتيبا فى عربات الدرجة الأولى التى يسودها سكون لا تسمع فيه قرقعة العجلات ، ولا صفير القاطرة . وانقلب تفكيره وخياله الى حال من العظمة والشعور بالكبرياء . وسمح لآماله أن تسبق الزمن فتراه طبيبا شهيرا جمع الى ذيوع الصيت ثروة ضخمة تؤهله أن يكون دائما من رواد هذه العربات الفاخرة دون أن يكون دخيلا عليها . ثم تسرب فكره وخياله إلى نواحى العظمة الاخرى فتصور الضياع والقصور ، وتخيل رحلة لذيذة فى الصيف إلى خارج القطر يمثل فيها مصر فى مؤتمر دولى طبى . وكان قد استند قليلا إلى إحدى النوافذ وإذا يد تنزل على كتفه فى ملاطفة وتنبيه ، فالتفت سريعا وملأت وجهه ابتسامة شاكرة ، ثم مد يده مسلما فى احترام ولين .

— إلى أين انت مسافر يا دكتور ؟

— الى مصر يابك فقد نقلت اليها للعمل فى المصلحة

— عال . إذن نتنظر منك ان تزورنا كثيرا . فأنت من الآن طبيبنا الخاص . أليس كذلك ؟

— بكل سرور يابك . ولى الشرف .

— العفو يا دكتور . وكيف حال عمك ؟ ألم تزره حديثا ؟

— كنت عنده فى الأسبوع الماضى وهو فى صحة جيدة . ولو أنه يعلم بهذا النقل لأوصانى أن أزور سعادتكم وأن أحمل اليكم أطيب تحياته .

— وكيف حال كامل ابنه فانى لم أره منذ أن نقل من القاهرة بعد تعيينه بمصلحة التلغراف .

— بخير يا بك . وسأمر عليه اليوم لاراه .

— إذن أنت لا تسافر فوراً الى مصر فى هذا القطار ؟

— سأتخلف عنده ساعتين ، وأصل ان شاء الله مصر فى هذا المساء .

— وإلى أين كنت تسير الآن ؟

— كنت أريد الذهاب الى عربة الاكل اتناول فنجانا من الشاى

— إذن تفضل . واعمل ترتيبك على أن تنزل عندنا إلى أن تنظم مسكنك الجديد . فاهم ؟ سأنتظرك فى المساء . لا أقبل منك اعتذاراً . إن لعمك عندى منزلة كبيرة . وأنت دكتورنا الصغير العزيز . ها . ها . ها ! بلغ كامل سلامى .

— متشكر يا بك . إن شاء الله

—

وقف القطار واستقبل كامل ابن عمه فى حفاوة وترحيب وكان قد انتهى من عمله حين كانت الساعة الواحدة بعد الظهر . فسار به الى المنزل ، وتحدثا فى الطريق عن النقل ، فهنأه به كامل تهنئة حارة ، وبادله الدكتور التهنئة على أناقته ومظهره الفخم الذى يبدو فيه من أبناء الطبقة الراقية

بلغا المنزل وكان الخادم على استعداد لتقديم الطعام . فأمره كامل باعداده ، وساعده فى ترتيبه على مائدته البسيطة . ودعا ابن عمه أمين الذى كان فى حجرة النوم مشتغلا بالتفرج على ملابس كامل العديدة الجميلة الصنع واللون فذهب اليه وأخذ مكانه من المائدة وبدأ الحديث . .

— برافو كامل . أنت لا تزال محتفظا برشاقتك المعروفة عنك برغم بساطة البلد الذى تعيش فيه . فمجموعة ملابسك تعتبر من أبدع ما يملكه هاو للازياء الحديثة

— أبدا . انها فى منتهى البساطة . ويظهر أن للعادة حكما لا يستطيع الانسان أن يتغلب عليه ولو عاش فى الارياف أو فى الصحراء

— « على فكرة » رأفت بك كان مسافرا الى مصر فى القطار الذى وصلت فيه . وقد عرفنى اثناء مرورى فى العربة وسأل عنك . وكان على أن أحمل سلامه اليك

— رأفت بك ! وكيف عرفك ؟ وماذا قال لك ؟

— يظهر أن ذاكرة الرجل قوية . فقد مرت سنتان لم أره فيهما ، ولكنه رآنى مع عمى كثيرا قبل ذلك . وقد هنأنى تهنئة رقيقة يوم ظهور نتيجة الدبلوم . وقد سألنى اليوم عن عمى . وطلب منى بالحاح ان أنزل عنده فى مصر حتى أهيىء لى سكنا ، وقال انه فى انتظارى الليلة

— فى انتظارك الليلة ؟ . اذن انت لا ترغب فى البقاء معى ولو يوما واحدا ؟

— بكل أسف . فأنا مضطر الى الذهاب الى المصلحة غدا صباحا ولذلك سأسافر بقطار الساعة الثالثة . ولا تنس أننى وعدت رأفت بك بالذهاب الى منزله هذا المساء

— إنها فرصة سعيدة جدا . الا تعرف ؟

— فرصة لا بأس بها وان كان لا يهمنى كثير الاختلاط بالطبقات الارستقراطية . بل إنى أضيق بالعادات والتقاليد الخاصة بها . وأحاول أن أتكلفها لئلا يفوتنى شىء منها ، فتقابل تصرفاتى بابتسامة أشفق منها على نفسى . ولذلك فانى فى الغالب ساعتذر للبك بعد ليلتين بحصولى على مسكن وأنتقل الى أحد الفنادق

كيف ذلك ؟ إنى أريد ان أكلفك بمهمة فى هذا المنزل . مهمة شريفة جداً . يتوقف على قضائها مستقبلى ، أوقل تتوقف عليها حياتى ، وقد خدمتنى الظروف أجل خدمة بما حدث بينك اليوم وبين رأفت بك مما جعلك تقبل النزول فى بيته ، فتكون ضيفا كريما مسموع الرأى ، مجاب الارادة . فهل أنت مستعد أن تقدم لابن عمك وصديقك هذه المكرمة الميسورة لك ؟

— لا أفهم . إنما ثق انى على أتم استعداد لخدمتك فانت أخى قبل كل شىء ، فاهى هذه المهمة وكيف يتوقف قضاؤها على بقائى فى منزل رأفت بك . أأنت تريد العودة الى القاهرة ؟

هـــذا طلب ثانوى سيكون له وقته القريب أو البعيد . اسمح لى دقيقة . . .

وقام كامل فغسل يديه بسرعة وجففهما ثم دخل إلى حجرة النوم وعاد ومعه الصورة فى غلافها .

اقترب من أمين وقد امتقع لونه وعلت أنفاسه ورفع الصورة بين اصبعين من يده المرتعشة . فأمسك أمين عن الأكل وحملق بعينيه وغرفاه وقال بصوت ملؤه الغرابة والدهشة :

« رسميه ! بنت رأفت بك ، انت بتحبها ! ؟ مين جاب لك الصورة دى ؟ » ... « آه ياعفريت » . جلس كامل وهو لا يكاد يعى ما يسمع أو مايقول ثم أجاب ـ الصورة مهداة إلى أمى . وليست لى بالذات ، أما انى أحبها فلست أدرى إن كان الحظ أو سوء المصير هو الذى أوقد نيران هـــذا الحب فى قلبى ، فهو يستعر به ولا تنبىء عنه إلا هاته الزفرات .

ـ وهل كاشفت أحدا بهذا الحب ؟

أبدا لم أجد فرصة أو لم أجد شجاعة . حتى أنى لأحس الآن بألم فى نفسى كأنى استبحت حرمة دفينة حين صرحت لك ، ولكنه الأمل ، فعزائى الآن يديك . وإنما أمى تعرف عنه كل شىء ، وأظنها ابدت الرغبة ذات مرة فى زواجى من رسمية ، واخبرتنى ولست ادرى أكان حقا أم قصدت الى سرورى . اخبرتنى أن رغبتها صادفت ارتياحا من الجميع .

ـ اذن المسألة أصبحت سهلة . وماذا يمكننى أنا أن أقدمه اليك فى هذا الامر ؟

ـ ماذا يمكنك ؟ يمكنك كل شى . تستطيع أن تعرف الميول الحقيقية نحو الفكرة . وميول رسمية بصفة خاصة . وتستطيع أن تكون صريحا فى ذلك . وأن تستعمل حيلك وتأثير شخصيتك . وعندك الفرصة سانحـــة لتمكنك من قضاء وقت طويل أثناء اقامتك فى المنزل .

ـ على كل حال ثق أنى سأجرب نفسى فى هذا الموضوع ، وانى سأتخذ ماليس من طبعى من التبسط فى التفاصيل ، وسيساعدنى على ذلك أن مثل هذا الحديث عند الطبقة الراقية مألوف لا غضاضة فيه . وإن كنت لا أكتمك ظنى أن لامثال هذه الطبقات ميولا وآمالا قد لا تدخل فى تقديرنا فلا نعمل لها حسابا . انما يمكنك أن تعتمد على فى ذلك الى أبعد حد

ـ إذن أضع كل أملى فيك . حياتى ومستقبلى بين يديك ، عاملنى كأخ ، ولا تنس أن قلبى يتفطر ، وأننى لن أرى الراحة حتى أرى بوا كير خدمتك . وسأظل مدينا لك بروحى مدى الحياة .

لماذا أمسكت عن الاكل ؟ كل ، فان المسافر يجب أن يأكل كثيرا .

ـ متشكر ، لقد امتلأت . اين ماء الغسل ؟

° ° °

سافر الدكتور ومضت أيام ، فأرسل اليـــه كامل خطابا يستثير فيه اشفاقه ، ويرجو منه افادته عما عمل وما رأى وما سمع ، ومضى أسبوع ، وأرسل كامل كتابا آخر يعتب فيه أشد العتب ، احتدت فيه عاطفته أول الأمر ثم لانت وتوسلت وتذللت وطلبت رداً .. أى رد !

وأتى الرد أخيرا . نشر كامل الخطاب بين يديه فى سرعة ورجفة وقرأ ..

عزيزى كامل

احييك وأتمنى لك الصحة والراحة . جاءنى خطابك وقد كاشفتها بحبك ، فامتعضت وزمت شفتيها فى احتقار وتبرم . ولم أشأ ان أجرح شعورها بعد ذلك ، اجتهدان تنسى عاطفتك الجامحة ، وثق انك تستطيع ذلك ، ويمكنك أن ترسل الصورة إلى الوالدة . أو تتخلص منها على أى حال . فهذا يساعدك على ماذكرت ، وانى لك على الدوام المخلص

أمين

° ° °

ومنذ شهر ، عاد كامل فى نهاية من أجازته المرضية الطويلة . واذا به يتلقى فى البريد الدعوة الآتية

« محمد رأفت بك ، والدكتور أمين سامى يتشرفان بدعوة حضرتكم الى حفلة عقد قران الآنسة رسمية كريمة الأول على الثانى فى الساعة السادسة من مساء الخميس ٢٥ الجارى بمنزل الأول فى الزمالك ويسرهما ان يشفعا هذه الدعوة بأطيب الأمانى »

وجمد كامل فى مكانه من ألم الصدمة . ولكن سؤالا سريعا وجوابا حاسما ، طاما بمخيلته فى غير شعور . أيذهب ؟ مستحيل ! .

محمد فريد عبد القادر